الفصل الأول

الإيجاز

الإيجاز في عرف البلاغين : تأدية المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة ، ولاشك أن العرب ـ لأنهم فرسان البيان : وأمة البلاغة ـ قد فضلوا هذا النمط الأسلوبي ، فهم يكتفون بالإشارة الدالة واللمحة الخاطفة ، ثقة بذكاء السامع ، بل اعتبروه البلاغة الحقة ، قيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ فقال : الإيجاز ، قيل وما الإيجاز ؟ قال : حذف الفضول وتقريب البعيد[1] ، ولذا كان طبعًا عندهم لاعتمادهم على الذاكرة .

أسراره :

والواقع أن للإيجاز أسرارا في الفن الكلامي ، ومواطن التخاطب ،فهو دال على امتلاء اللفظ ، وقوة الحبك ، وشدة التماسك ، ثم إنه يزيد في الكلام عن طريق الإيحاء ، لأنه يترك على أطراف المعاني ظلالا خفيفة يشتغل بها الذهن ، ويعمل بها الخيال ، ويفتح آفاقًا للفكر تتشعب وتتلون بمعانٍ أخرى يتحملها اللفظ بالتفسير أو بالتأويل ، كما أنه دال على طواعية الألفاظ ، ومرونتها ، فهو يتطلب جهدًا وروية لأنه تصفية وتنقية ، وتصعيد وتركيز ، ولا يتهيأ ذلك إلا بطول النظر والتعهد ولذا كان للكلمة الموجزة سحر يأخذ بالقلوب وشعر يجرى في الشعور[2] ، ومن هنا كان لا ينبغي أن يواجه به إلا الخاصة ذوو الأفهام الثاقبة والعقول الراجحة[3].

---

(١) انظر : الصناعتين ص ١٦٧

(٢) انظر : دفاع عن البلاغة : أحمد حسن الزيات ص ١٠٥ وما بعدها

(٣) انظر : سر الفصاحة ، لابن سنان الخفاجى ص ٢٠٣

لكل هذه الأسباب مجتمعة نجد نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام يمتدح الإيجاز ، ويوجه إليه ويعجب به ، ويتخذه في أكثر أحاديثه نهجًا شديدا ، سمع رجلاً يقول لآخر : «كفاك الله ما أهمك» فقال :«هذه البلاغة» وسمع آخر يقول «عصمك الله من المكاره» فقال : «هذه البلاغة»[1] وتكلم رجل عنده ، فقال له ﷺ : «كم دون لسانك من حجاب»؟ فقال شفتاى وأسناني فقال له : «إن الله يكره الإنعاق في الكلام ، فنضر الله وجه رجل أوجز في كلامه ، واقتصر على حاجته» ، وسئل : فيم الجمال ؟ فقال : «في اللسان» وقال :«إن من البيان لسحرًا» وقال عن نفسه «أوتيت جوامع الكلم وخواتمه»[2].

وقد قسم البلاغيون الإيجاز إلى إيجاز بالحذف ، وإيجاز بالقصر ، وفيهما سنرى كيف كان النبي ﷺ بحق أبلغ البلغاء .....

أولا : الإيجاز بالحذف

لقد نال القرآن الكريم حظًّا جديرًا به ـ على الأقل ـ في بيان حذفه وأسراره قديما وحديثا ، وهذا بعض ما يجب على المسلمين نحو القرآن نهوضًا بالدين والأدب ، أما البيان المحمدي فلم نعلم أحدًا عالج حذفه ، وخاض غماره ، واستلهم البلاغة النبوية شيئا من مكنوناتها ، وإن هي إلا شذرات ، لا تؤلف منهجا ولا تغني غناءً ، ومنهجنا : إصدار أحكام على هدى بصيرة ، بعد ما يشبه الاستقصاء من حشد ما يمكن من أساليب نبوية صحيحة بحثًا علميًّا وأدبيًّا .

أولا : حذف حرف أو أداة

١- قال رسول الله ﷺ لأنجشة : «يا أنجش رويدك سوقك بالقوارير»[3].

---

(١) انظر : العمدة لابن رشيق ٢٤١/١ ط السعادة

(٢) انظر : العمدة ٢٧١/١ ، والبيان والتبيين ١٢٧٨/١ ، والشفا للقاضي عياض ١٠١/١

(٣) التاج الجامع ٢٧٩/٥

٢- وعنه ﷺ : «من أنفق زوجين في سبيل الله ، دعاه خزنة الجنة ، لكل خزنة باب : أي فل هلم»[١]

٣- عن أبي ليلى أن النبي ﷺ : سئل عن حيات البيوت فقال : «إذا رأيتم منهن شيئا في مساكنكم ، فقولوا : أنشدكن العهد الذي أخذ عليكن نوح ، أنشدكن العهد الذي أخذ عليكن سليمان ألا تؤذونا ، فإن عدن فاقتلوهن»[٢]

٤- عن عبد الله بن عمرو أن رجلا سأل النبي ﷺ : أي الإسلام خير ؟ قال : «تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[٣]

وقال ﷺ :«والذي نفسي بيده ، لتأمرون بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله يبعث عليكم عقابًا منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»[٤] ونجد هنا : تنوع الحذف ، بين حرف قد حذف من بنية الكلمة ترخيمًا في الأول «يا أنحش» والثاني :«أي : فل» ترقيقًا في الأول ، ولطفًا ، لأن المقام رحمة النساء في السفر ، فبنى الأسلوب على هذا الشعور ، من اختيار ألفاظ دالة وزاد الترخيم استرحاما وترقيقا ، وافتراضا ، لتلبية التوجيه بالرفق والرأفة ، والثاني : مقام سار يزف فيه البشرى لأهل الجنة ، ففيه دلال وتهنئة ومحبة ، دلالة على الامتزاج بالشعور المبهج ينهل نبيل العطاء والثواب .

وفي باقي الأحاديث جاء الاستعمال عربيا محضًا ، حبكا في الأسلوب وطلبًا للإيجاز فالأول : أنشدكن العهد ، والأصل : أنشدكن بالعهد ، و«أي الإسلام خير تطعم الطعام»، والجملة في موقع الخبر ، فلابد من تقدير «أن» المصدرية ، ونجد إخراج الأسلوب على المضارع الحالي افتراضا لوقوع الصفة وامتثالها والإخبار عنها ، وكذا في الحديث :«ليوشكن الله يبعث عليكم عقابًا» والمقام تهديد لترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ولما كانت أن

---

(١) التاج الجامع ٣٣٧/٤
(٢) المرجع السابق ١٠٠/٣
(٣) المرجع السابق ٢٧/١
(٤) المرجع السابق ٢٥٥/٥

المصدرية تمحض الفعل للاستقبال حذفها ، ليجعل العقاب النازل من الله كائنا حالاً ، تهديدًا وتأكيدًا .

حذف أداة النداء :

١- عن أبي مسعود قال : بعثني النبي ﷺ ساعيا ثم قال «انطلق أبا مسعود ، لألقينك يوم القيامة تجيء وعلى ظهرك بعير من الصدقة له رغاء قد غللته رفاء قد غلته ، قال : إذًا لا أنطلق ، قال ، إذًا لا أكرهك»[(١)].

٢- قال ﷺ لأبي بن كعب : يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قال : قلت : الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، قال : فضرب في صدري وقال : «ليهنك العلم أبا المنذر»[(٢)].

٣- قوله ﷺ لمن هاجر إلى الحبشة «لكم أهل السفينة هجرتان»[(٣)]

٤- قال ﷺ «من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته ، حلت له شفاعتي»[(٤)].

٥- عن عائشة رضي الله عنها كان مما يعوذ به النبي ﷺ أهله «اللهم رب الناس مذهب الباس ، اشف أنت الشافي ، لا شافي إلا أنت شفاء لا يغادر سقمًا»[(٥)].

٦- عن خالد بن الوليد عن رسول الله ﷺ علمه أن يقول «وقت نومه» اللهم رب السموات السبع وما أظلت ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت كن لي جارا من شر خلقك كلهم»[(٦)]

وهذه الأحاديث تدور حول حذف أداة النداء مع نيتها ، وبقاء أثرها ، والواقع أن هذه ـ ظاهرة أسلوبية ـ لم تلق عناية ممن تكلم في النظم البلاغي وهي

---

(١) التاج الجامع ٨٩٢/٤
(٢) المرجع السابق ١٣/٤
(٣) المرجع السابق ٢٧٤/٣
(٤) المرجع السابق ١٦٦/١
(٥) المرجع السابق ٢١٤/٣
(٦) المرجع السابق ١٣٨/٥

ظاهرة اقتضتها بلاغة الأسلوب المعبر عن حال صاحبه المناسبة للمقام وحال المخاطب دلالة على قوة البيان[1].

والملاحظ في الحديث الأول «انطلق أبا مسعود» أن المقام نصح وتخويف من غل أموال الصدقة ، والخوف الممتزج بالرحمة ، فضيق المقام هنا يقتضى حذف الأداة .

والثاني : «ليهنك العلم أبا المنذر» ، وقد ذكرت الأداة : (يا) صدر الحديث لأنه اختبار واستخبار ، وتلطف بالمسئول ، تلقيبًا له بما يحبه ، فلما وفق للإجابة زاد تقريبا واقتضى هذا حذف الأداة مبالغة في القرب ، وإظهار الحب ، وفيه ترغيب في الآية المباركة ، ونفس المقتضى في الحديث «أهل السفينة» ، وقد زاد على التقريب والمؤانسة ، إشهار فضلهم ، بإظهار عملهم الجليل ، وجعلهم أهل السفينة ملازمين لها ، إشارة إلى هجرتهم إلى الحبشة في سبيل الله .

وباقي الأحاديث : ابتهالات وتضرعات ذاتية ، أو تعليمية ، وقد حذفت في جميعها الأداة وحين يتوجه النداء «بيا» إلى رب العزة ، وهي موضوعة على الأرجح لنداء البعيد والله أقرب إلى الإنسان من نفسه يكون الغرض استقصار الداعي لنفسه ، واستبعاده عن مرتبة المدعو نحو «يا الله»[2] تعظيما وتقديسا ، وهنا ملاحظة يشار إليها هي اتباع المنادى وهو صفة الله ـ تعالى ـ للفظه «اللهم» قد اطرد فيه حذف أداة النداء «اللهم رب هذه الدعوة» و «اللهم رب الناس» اللهم رب السموات السبع[3] ، والسبب في هذا :

أن لفظه : اللهم : فيها إخلاص النداء ، وإحساس بالقرب الإلهي ، وبترقي الأسلوب بالشعور مصوراً غلبة الانفعال الإنساني ، وصدق الحس بزيادة القرب

---

(١) قلنا إنها ظاهرة لوفرة أمثلتها وإلا فقد ورد منها العديد في القرآن

(٢) انظر : المطول على التلخيص للتفتازاني : ص ٣٤٤

(٣) ومثله في القرآن ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ (آل عمران:٢٦)

من الله مع الوصف بصفة كبرى تناسب وتهز الوجدان الإنساني «رب السموات ، رب هـذه الـدعوة ، وهـي الآذان يسـري في الآفـاق وضـيئا ، أو بالربوبيـة رب الناس» ومتعلقات الصفات محسوسة لها ظلالها العميقة ، وهذا يؤكد القرب ، ويوجب حذف الأداة ، دلالة القرب الرتبي ، والحسي ادعاء ، وبقية أحاديث التضرع فيها مع القرب ورجاء الإجابة ـ ملمح نفسي خاص يدعو إلى الحذف ، ففي حال المرض والبلاء نازل بالمؤمن نجد صدق الابتهال ، وضيق المقام ، واهتزاز الضعف البشري ، فهنا الاندماج والوجازة ، «اللهم رب الناس مذهب الباس» تصور النغمة نفسها حالة الحزن وصدق التضرع عند المتكلم ، وفي التفويض إليه من الأرق : اللهم رب السموات وما أظلت ، ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت بإضافة الربوبية إلى مخلوقات ضخمة جبارة ، ونلاحظ أن القرب غرض عام قوته الحالات النفسية الخاصة التي هي أثر المقامات والأحداث والانفعال بالحياة بما يعتبر مقتضى حال يمكن أن ينفرد بسر الحذف ، كما لا يخفي شدة التلاؤم بين الأساليب ونظمها واختيار كلماتها ، وبين الحالات العامة أو الشعورية الإنسانية .

حذف الفعل :

التحذير :

١- قال رسول الله ﷺ «إياكم وكثرة الحلف في البيع فإنه ينفق ويمحق»[١]

٢- وقال عليه الصلاة والسلام «إياكم وسوء ذات البين فإنها الحالقة»[٢].

٣- وقال «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» ، «إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[٣]

٤- قال ﷺ في الصوم «إياكم والوصال ، إياكم والوصال»[٤].

---

(١) التاج الجامع ١٩٦/٢ (٢) المرجع السابق ٢٥/٥

(٣) المرجع السابق ٢٩/٥ (٤) المرجع السابق ٧٠/٢

الإغراء :

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما : كان آخر كلام النبي ﷺ «الصلاة الصلاة اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم» [١]

٢- من حجة الوداع قوله ﷺ : «أيها الناس السكينة السكينة»[٢]

٣- قال النبي ﷺ لمسلمة :«يا بني مسلمة دياركم تكتب آثاركم»[٣]

٤- «يا أنجش رويدك سوقك بالقوارير» [٤]

٥- قال ﷺ لأبي ذر ، وقد خرج إلى حرة المدينة ، «مكانك حتى آتيك»[٥].

ونجد هنا القصد إلى المُغْرَى به مباشرة حثًّا عليه وترغيبًا فيه ، ودفعا به إلى القلوب مرة واحدة فالصلاة صلة روحانية تجعل المرء بحضرة الله دوما ، وفي حجة الوداع يدعو المشهد إلى الوقار والاعتبار وخوفا مما يسببه التدافع في الزحام ، و«دياركم» حث على لزومها ، والإقامة بها لتكثير الثواب بكثرة الخطا إلى المسجد ، والأنجشة حادي الإبل بالزوجات الطاهرات و «رويدك» رفقًا وحدبًا ، ولأبي ذر «مكانك» ، فهو بشر لا يطيق لقاءات النبي ، والملائكة فكأن المقام لا يتحمل بسطًا ، وذكرا للفعل ، وأن هي إلا كلمة مركزة جامعة للشعور ، قاصدة إلى ما عمت فائدته ودعت الحاجة إليه ترسيبًا في الوجدان وتثبيتا في الأذهان .

التهديد :

من حديث حذيفة عن النبي ﷺ في الفتن «إن السعيد لمن جنب الفتن (ثلاثا) ولمن ابتلي فصبر ، فواها»[٦]

---

(١) التاج الجامع ٢/٢٧٦
(٢) المرجع السابق ٢/١٠٧
(٣) المرجع السابق ٢/٢٣٢
(٤) المرجع السابق ٥/٢٧٩
(٥) المرجع السابق ٥/٢١٨
(٦) المرجع السابق ٥/٣٠٣

جاء رجل إلى النبي ﷺ يوم الفتح ، فقال : يا رسول الله إني قد نذرت لله إن فتح الله عليك مكة أن أصلي في بيت المقدس ركعتين فقال : «صل ههنا ، ثم أعاد عليه فقال : صل ههنا ، ثم أعاد عليه فقال شأنك إذًا»[1]

من حديث الحوض عن رسول الله ﷺ «ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال ، أناديهم ، هلم فيقال إنهم قد بدلوا فأقول سحقا سحقا»[2]

عن اللقطة : «اعرف عفاصها ووكاؤها ثم عَرِّفَها سنة فإن جاء صاحبها وإلا فشأنك بها»[3]

والحديث الأول فيمن ابتلي بالفتن فباشرها وسعى فيها ، فكأن التقدير : فواهًا لمن سعى فيها ولم يصبر على أذاها ، فحذف الفعل ومتعلقه ولم يبق إلا «واها» بمعنى حسرة من الجملة وكما تبقى الحسرة وحدها لمن اندفع في الفتن ، ونلاحظ مع التهديد والتحذير ، الإشفاق لمصيره المؤلم ، بيد أن الكلمة تعطي مالا تعطي كلمة حسرة أو هلاكا ، لأنها معبرة بصوتها عن التأوه وإنه لصوت يوحي بفيض الألم والحزن وهذه الكلمة تضم أمشاجا من انفعالات شتى فهناك التهديد والوعيد والتحسر والرحمة وتفخيم الفتن ببيان أثرها المدمر .

ثم نجد كلمة واحدة ، شأنك ، جاءت في مقامين مختلفين فأعطت مدلولين متغايرين قيلت في الحديث الثاني لمن نذر صلاة في المسجد الأقصى إذا فتحت مكة ولم يقبل الإرشاد فلم يبق إلا التهديد ، فشأنك إذًا ، أي اعرف شأنك إذا ذهبت ، يعني أنت حر طالما انفردت برأيك ، وحذف الفعل هنا فيه مع التهديد التبرم بمن لم يتقبل الإرشاد ، وهذا المقام أخذ لفظتين من جملتين لينهي حديثا غير مثمر مع من ركب رأسه .

---

(١) التاج الجامع ٥/٢١٨ (٢) المرجع السابق ٥/٢٧٩

(٣) المرجع السابق ٢/٢٤٧

واللفظة ذاتها جاءت في الحديث الأخير جاءت تشريعا وتوجيها في أحكام اللقطة لمن يعرفها منه وقد حذف الفعل للإباحة : يعني أنت حر بعد تعريفها سنة ـ إما حفظتها وإما انتفعت بها ، وهذا من براعة النظم في البيان النبوي .

أما حديث الحوض : فهو لقطة من اليوم الآخر ، والكلمات هنا بقدر حفظا على الصورة ، فهنا : طرد لبعض من يرد الحوض المحمدي دون إبداء أسباب ، ثم هنا حوار يعرف منه النبي تبديل المطرودين ، وقد أهملت الصورة هؤلاء المطرودين فلا تنازع ولا جدل ، ولا صوت ، وقد حذف المفعول في «بدلوا» تعظيمًا وتمهيدًا للحكم ، سحقا سحقا ، الذي حذف فيه فعله وناب عنه مصدره مكررا لتفأجهم بالحدث المجدد وحده السحق والهلاك دلالة على الغضب ونذيرًا للتهديد والوعيد الذي يبلغ مداه .

الابتهال والمناجاة :

١- كان رسول الله ﷺ يقول في القيام من الركوع «ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد»[١].

٢- استسقى رسول الله ﷺ للناس ، فمطروا من جمعة إلى جمعة ، فشكوا إليه الضرر ، فقال ﷺ للناس : «اللهم على رءوس الجبال والآكام وبطون الأودية ، ومنابت الشجر»[٢] وكان إذا رأى المطر قال «اللهم صيبًا نافعًا[٣]» وقد قال ﷺ في مرة استسقى لقومه «اللهم حوالينا لا علينا»[٤] والتوجه بالخطاب إلى الله في حالة صفاء النفس وذوبان العاطفة في مقام الشكر والثناء ، لك الحمد حمدا يملأ السموات ، ويملأ الأرض ، ونجد تكرار «ملء» تأكيدًا لكثرة الحمد ، وإقرارا بالشكر ، والتمجيد ، بيد أن الملء مفعول لفعل من مادته فحذفه تنزيها للأسلوب عن الجمع بين

---

(١) التاج الجامع ١/١٩١

(٢) المرجع السابق ١/٣١٦

(٣،٤) المرجع السابق ٣/٢٨٦

الأمر ومصدره ومبالغة في هذا الملء المجازي صدقا في المناجاة والرغبة إلى الله .

كما نجد هذا الاهتزاز الوجداني الداعي إلى الحذف في مقام التضرع برفع البلاء والضر «اللهم على رءوس الجبال» اللهم حوالينا ، اللهم صببا نافعا ، ونلحظ البدء بلفظ الجلالة فخمًا قويًا دليلاً على الضعف واللجوء ، ثم المقصود مباشرة بعد حذف الفعل كأن مقام الكرب والبلاء لا يتحمله ، مبالغة في الدعاء وإخلاصا فيه وذكرًا للأهم في مصالح العباد والبلاد .

الترغيب :

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت يا رسول الله من أبر؟ قال : «أمك ثم أمك ثم أمك ،ثم الأقرب فالأقرب»[1].

١- جاءت الأنصار إلى الرسول الله ﷺ يوم أحد فقالوا : أصابنا جهد وقرح فكيف تأمرنا؟ قال : «احفروا وأعمقوا وأوسعوا ، واجعلوا الرجلين والثلاثة في القبر ، قيل : فأيهم يقدم ؟ قال : أكثرهم قرآنًا»[2]

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ يستأذنه في الجهاد ، فقال : ألك والدان قال : نعم : قال «ففيهما فجاهد»[3].

ونلاحظ في هذه المجموعة أن الفعل المحذوف وقع في كلام جوابًا عن سؤال سابق كما يلاحظ أهمية المقام وخطورته ، كمقام الإحسان إلى الوالدين ، وطريقة دفن الشهداء في موقعة أحد ، إن المقام لا يتحمل إيضاحا بل لقد أعفت القرينة من ذكر ركني الجملة وبقي المتعلق ، أو حذف الفعل وبقي نائب الفاعل ، لتوقف الفائدة على المهم شدة في التركيز ، وترغيبا في بر الأقارب ، وإن كنا نلمس في حديث «أحد» جو الحزن والانقباض وهو يستدعي الوجازة وإن كانت فياضة بالشعور ، ونلمح في الحديث الثاني ما اقتضاه مقام الترغيب

---

(١) التاج الجامع ٣٤٢/٤ (٢) المرجع السابق :٥٨٠/١

(٣) المرجع السابق : ٣٨/٣

من التأكيد الشديد في قوله «ففيهما فجاهد» بتكرار الفعل لزومًا ثم حذف أحدهما فصاحة فرارا من الجمع بين المفسر والمفسر له ، وقد اقتضى المقام تقدير الفعل قبل الفاء (فجاهد) لأن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها فحذف من كل منهما ما تدل الأخرى عليه اعتمادا على الفعل ، ولهذا ماله من تأكيد واختصاص يدعم الغرض العام وهو بر الوالدين ، ولا بأس هنا : أن نشير إلى أن فاء الفصيحة دلت على شرط محذوف بأداته ، ولم يبق إلا جوابه أعنى : إذا كان لك والدان ففيهما فجاهد ، وقد حذف كل هذا ، واقتصر على الجواب مقدما فيه التعلق مكررا فيه الإسناد ليمكن للترغيب ويصل به إلى حد لا نزيد عليه وكفى به أن يسمي البرجهادا مجازا ، فالعبارة من أية جهة نظر إليها طغت المحاسن وأوجه البيان المعجز .

حذف المبتدأ :

١- قال رسول الله ﷺ «تعوذوا بالله من جب الحزن ، قالوا يا رسول الله وما جب الحزن ؟ قال : فإنه وادٍ في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم مائة مرة ، قلنا يا رسول الله ومن يدخله ؟ قال : القراء المراءون بأعمالهم»[١].

٢- قال ﷺ لرجل سأله عن الصدقة : «ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلأهلك ، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك ، فإن فضل عن ذى قرابتك فهكذا وكذا»[٢].

٣- عن راتح بن خديج قلت يا رسول الله إنا لآتوا العدو غدا وليست معنا مدى قال : «اعجل أو أرن ما أنهر الدم ، وذكر اسم الله عليه فكل ليس السن والظفر ، وسأحدثك : أما السن فعظم ، وأما الظفر فمدى الحبشة»[٣]

٤- قال ﷺ : «الطيرة شرك (ثلاثا) وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل»[٤]

---

(١) التاج الجامع : ٥٨٠/١
(٢) المرجع السابق ٣٨/٣
(٣) المرجع السابق ١٠٤/٣
(٤) المرجع السابق ٢٢٢/٣

هذه جملة من الأحاديث حذف فيها المبتدأ ، ولا يخفى أن البلاغيين ذكروا افتقار الحذف إلى أمرين : قابلية المقام وهو معرفة لسامع لوجود القرائن ، والثانى : الداعى الموجب لرجحان الحذف على الذكر لأنه الأصل[1].

وتجد هنا حذف المبتدأ وقد وقع جوابا عن سؤال سبق ، وهو قرينة تنافي ذكره وهذا ما يقصده البلاغيون بقولهم الاحتراز عن العبث في الظاهر لدلالة القرينة[2].

كما في الحديث الأول ماجب الحزن ؟ «واد في جهنم» وإن كنا نلاحظ أن المقام هنا : التخويف والتفظيع ، ثم الاقتصاد في التأثير على النفس بعدم تكراره اكتفاء بذكره لاسيما أنه لفظاعته قدمه الحديث على دفعات ساعد الحوار على تصعيدها وجو الرعب مسيطر على الحديث كله ، وحذف بعض الأصول هنا كالمبتدأ ، والفعل في «من يدخله» والقراء المراءون ملائم لحالات المخاطبين النفسية وإظهار النفور والضيق من هذا العذاب المهين .

وفي حديث التصدق : وقع المبتدأ المحذوف صدر جملة الجزاء ، ومع ظهور القرينة في الشرط السابق «فإن فضل شيء» وافتراض العبث وتخييل الاعتماد على العقل في معرفته تأكيدا ، نلاحظ القصد مباشرة إلى الخبر ، المتصدق عليه ، لأنه الأهم عند السائل لتعيين جهات الإنفاق ، ثم افتراض ما يفضل عن حاجة السامع ومن كان مثله وحاجة أهله ، وذوى قرباه ، والمبتدأ في كل ذلك ملحوظ عقلا مفهوم من السياق مقررًا واقعًا ، أما حديث السن والظفر ، فهما مذكوران في الشرط صريحًا ، وقد حذفا من صدري الجملتين أنفة ونفورًا ، خاصة أن الخبر هو المبتدأ في المعنى ، فذكره ـ تأكيدًا ـ لا داعي له فهو ساقط في الحكم والاعتبار ساقط في الأسلوب تلاؤما بينهما .

أما حديث الطيرة فجمال كله «الطيرة شرك ، ومامنا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل» وهو يصدر الطبع البشري ووقع ما يتشاءم منه ويقبح في النفس ، وقد

(١،٢) انظر : المطول على التلخيص ص ٦٧ .

ظهر في معرض القصر ، والمقصور عليه محذوف ، وهذا غريب ، لكن عندما ندرك أن المبتدأ وهو من يتشاءم أو من يتأثر بمثل الضعف البشري ، وينافي قوة اليقين ، ستره بالحذف كما تستر العورات ، وأخفاه كما يخفي الرذل من الطبائع ، رغبة عنه ، ونفورًا ، ثم يصحو الأسلوب بعد ذلك قويا عند الالتجاء إلى الله «ولكن الله يذهبه بالتوكل» وحديثنا هذا لا يقضي منه المرء عجبا كلما زاده نظرا طغى جمالا .

ترك الخبر :

قال رسول الله ﷺ :«ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا بلى يا رسول الله : قال : إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة»[1]

سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار قال : «الفم والفرج»[2]

عن سفيان الثقفي رضي الله عنه قال : يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليَّ ؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال «هذا»[3]

عن سعد بن عبادة أنه قال : «يا رسول الله إن أم سعد ماتت ، فأى الصدقة أفضل ؟ قال : الماء ، فحفر بئرا ، وقال : هذه لأم سعد»[4]

وفي هذه المجموعة وقع الكلام جوابا لسؤال محقق دل على المحذوف ، وعلى هذا فليس من الفصاحة ذكر الخبر مع الدليل القوي عليه ، وقد اتخذت هذه المجموعة أسلوب التفضيل ، وجاء الجواب بالمفضل المذكور : إصلاح ذات البين ، هذا (اللسان) ، الماء ، وحذف المفضل عليه مع أفعل التفضيل الواقع خبرا ، حبكا للكلام ومبالغة في أثر هذه المبتدآت ، وأنها وصلت إلى منزلة لا تلحق ترغيبا في إصلاح ذات البين ، وحفر الآبار ووقف العيون في سبيل الله ، وترهيبا من آثار الفم والفرج ، واللسان وهو أخص من سابقه .

---

(١) التاج الجامع ٧٥/٥
(٢) المرجع السابق ٦٢/٥
(٣) المرجع السابق ١٨٣/٥
(٤) المرجع السابق ٣٨٣/١

دلالة الشرط على الخبر :

قال ﷺ في تنظيم أمراء الجيش في غزوة « إذا كان القتال فعليٌّ »[1]

عن معيقيب رضي الله عنه قال : ذكر النبي ﷺ المسح في المسجد (يعني الحصا) قال : « إن كنت لابد فاعلا فواحدة »[2]

وقد وقع الخبر ركنًا في جملة وقعت جواب شرط دل على المحذوف ، والتقدير : إذا كان القتال فعليٌّ القائد ، وإن كنت لابد فاعلاً فواحدة تكفي أو تجوز ، واقتضى المقام إفراد عليٍّ في القيادة ، والأسلوب أيضا ، وفيه مدح لعليٍّ ، وإشادة بكفاءته ، وترك الخبر لأنه معلوم عقلاً وواقعًا ، مع ما فيه من تكثير الفائدة ، فإن الخيال يذهب في المتروك مذاهب كالقيادة والسيادة والإمارة ، والكفاءة وكلها جائز يراد .

أما الثاني ففيه مع الاختصار الإجمالي والترك ، وعدم الاهتمام بالخبر لأنه الحد الفاصل بين جواز الصلاة وإبطالها مع ما فيه من منافاة الخشوع ، والتدبر والإقبال على الله كل هذا ينافيه العبث بالحصى .

تكثير الفائدة :

قال رسول الله ﷺ « لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم قلنا يا رسول : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن؟ »[3]

قال رسول الله ﷺ « إذا صار أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادي مناد يا أهل الجنة لا موت ، يا أهل النار لا موت »[4].

---

(١) التاج ٣/٣٣٦

(٢) المرجع السابق ١/١٦٠

(٣) المرجع السابق ٢/٤٣

(٤) المرجع السابق ٥/٤٢١

والاكتفاء بالمبتدأ دون الخبر له وقعه القوي في الوجدان شاغلاً عما سواه ، وهذا ما يرسخ المعنى ، ويقوي الغرض ، كالحديث « يا أهل الجنة لا الموت ، يا أهل النار لا الموت» ووقع هذه الكلمة على أهل الجنة حياة جديدة لهم ، وعلى أهل النار موت معنوي لهم ، وبقية الحديث : « فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ، ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم» رواه البخارى ، وزاد مسلم والترمذي ، « فلو أن أحدا مات فرحا لمات أهل الجنة ، ولو أن أحدا مات حزنا لمات أهل النار»[1] .

وهذا يفسر انفراد المبتدأ أو اسم لا بإيحاءات شتى يقلل منها ذكر الخبر فهنا تكثير الفائدة ، وزف البشرى والمبادرة بالتهنئة في جانب أهل الجنة وفي أهل النار الإسراع بالإساءة ومضاعفة الكمد والغم جزاءً لهم .

أما غرض الحذف في الحديث :« قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال فمن ؟» فنجد مع تكثير الفائدة باتساع التأويل في المحذوف ، « فمن غيرهما » ، أو قائدكم أو المضل لكم أو المتبعون لهم . . . سيطرة الأسف والألم على الأسلوب فاختزال الإجابة في ثلاثة أحرف لكنها تملأ الدنيا نفوراً وإنكارا ، مع أخذهما بأعناق كلام طويل ، إن لم تتبعوا اليهود والنصارى فمن غيرهما تتبعون ، فحذف فعل الشرط ، وأداته وخبر المبتدأ ؛ لأن المقام النفسى من الضيق والتحزن والإنذار لفترة من المستقبل مظلمة ـ لا يتحمل بسطًا في الألفاظ أو حتى ذكرها على طبيعتها كما أن حال المسلمين في تلك غير محبوبة وغير متفقة مع هدي الدين .

وقد نجد حذف الخبر اكتفاء كما في الحديث : قال رسول الله ﷺ لرجل سأله :

---

(١) انظر : التاج الجامع : ٥/٤٢١

«لا يمين عليك ، ولا نذر في معصية الرب ، ولا في قطيعة رحم ، ولا فيما لاتملك[1]»

وخبر لا الأولى «عليك» دل على خبر لا الثانية اكتفاء ثم استقباحًا لهذا الإلزام فيما يشذ عن الخلق ويغضب الله وإعراضًا عن الخبر في الأسلوب دلالة الإعراض عن هذا الإلزام وهذا من التلاؤم بين واقع الأساليب ، وواقع الحياة .

حذف الموصوف :

قال رسول الله ﷺ لمن رفع صوته بالدعاء «إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا»[2]

وعنه ﷺ «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا»[3]

من حديث «فتنة القبر» عن الكافر «ثم يقيض له أعمى أبكم معه مرزبة من حديد»[4].

عن معاذ بن جبل ﷺ قلت يا رسول الله : أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار قال : «لقد سألت عظيما ، وإنه ليسير على من يسر الله عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت»[5]

وقد حذف الموصوف في هذه الأحاديث ودلت عليه القرينة ، واقتضاه مقام نفسي أو لفظي ، ففي الأول : إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، حذف المفعول الموصوف هنا وهو «إلهًا أو ربًا» تأدبا وسموا خلقيًا ، وبالابتعاد عن إلصاق صفة غير الكمال بلفظ الموصوف ـ جل وعلا ـ لفتة نفسية دالة على كمال الخلق المحمدي صدقًا وتأدبًا وتعليمًا .

---

(١) التاج الجامع ٣/٤٨
(٢) المرجع السابق ٥/١٠٢
(٣) المرجع السابق ٥/٢٠٤
(٤) المرجع السابق ٥/٢٠٩
(٥) المرجع السابق ٢/٤٩ ، ٥٠

والحديث الثاني سبق في مقام التخويف ، فقد عرضت مشاهد من الملكوت الأعلى على نبي الله عليه الصلاة والسلام وهو مقام شديد يقتضي خطم الكلام واللمح فيه والاكتفاء بالإشارة الدالة ولو قال : لضحكتم ضحكا قليلا ، ولبكيتم بكاء كثيرا لكان العبث ومنافاة المقام الجاد ، فحذف الضحك لمنافاة تكراره للمقام ، وحذف البكاء اقتصادًا في التحزين ، وبعثا للأمل الواعي .

وفي فتنة القبر حذف الموصوف لدلالة السياق ، والأصل : ثم يقيض له من الزبانية واحد أعمى أبكم ، فذكر الصفة وحذف الموصوف مبالغة في التخويف والتنفير ويكفي أن يتصور الخيال مخلوقًا أعمى أبكم لا يتأثر ولا يستجيب قابضا على فريسته لا ملجأ لها ينزل بمقامع الحديد عذابا هائلا عليها ، بهذه الصفات المرسومة بدقة تثير الرعب ، والفزع ، وهذا ما يناسب الكافر ويقدم مشهدًا من فتنة القبر .

وفي حديث معاذ «لقد سألت عظيما ، وإنه ليسير على من يسرالله عليه» ، والأصل : لقد سألت أمرًا عظيمًا ، وإنه ليسير على من يسر الله عليه ، فاكتفى بالصفة مبالغة في الموصوف ، وبيانًا لشأن الأمر وعسرته وشدته وحين تأتي الشدة والعسرة إلى جانب الله بالتوكل عليه تذوب الشدائد ، ويسهل الصعب ، فصفة اليسر قصد إليها مباشرة بالذكر مبالغة في يسر الأمر وبيانا لعظمة الله ومزيد فضله ، ولعل في هذا الطباق ـ فوق التأكيد ـ بعث الإرادة لتسارع أهواء الحياة ، ونزعات النفس وهو أمر عسر ، وحتى لاتنهزم الإرادة أتى بالجانب الآخر وهو تيسير الله وهداه ، فكأنه الصراع المستمر يهون باللجوء إلى الله دفعة أخرى للتقوية والتثبيت .

حذف المضاف :

١- قال رسول الله ﷺ لابن عباس «احفظ الله يحفظ ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله»

٢- قال رسول الله ﷺ لمن أرادت أن تحج عن أمها «اقضوا الله فالله أحق بالوفاء».

٣- «اذبحوا لله في أي شهر كان وبروا لله وأطعموا»[١]

٤- قال ﷺ : «أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[٢]

٥- من حديث المعراج قال إبراهيم عليه السلام «يا محمد أقرئ أمتك منى السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، وأنها قيعان ، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر»[٣]

٦- من دعاء النبي ﷺ «اللهم إني أعوذ بك من الهدم»[٤].

٧- وقال ﷺ «الماء من الماء» .

٨- وقال ﷺ «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم ينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله ، وعمله وشقي أو سعيد»[٥]

هذه الأحاديث تتنوع المقامات فيها بين ترغيب ، وإرشاد واعتبار ويمكن رد أسباب الحذف فيها إلى مايلي :

التفخيم والمبالغة :

كما في الأحاديث «احفظ الله يحفظك ، اقضوا الله ، بروا لله ، ليس مني»، لكنه أوقع الفعل مباشرة على لفظ الجلالة وأدخل من الجارة على ضمير المتكلم ﷺ ، ليوفر للترغيب في الثلاثة الأول ، والترهيب في الأخيرة القوة والمضاء بالتفخيم لهذه المحذوفات أعني : دين الله ـ حق الله ـ خلق الله ـ أمة ـ

---

(١) التاج الجامع : ١٠٩/٣ .
(٢) المرجع السابق ٤٨/١ .
(٣) المرجع السابق ١٠٠/٥
(٤) المرجع السابق ١٢٦/٥
(٥) المرجع السابق ١٠٩/١

أو دين ، لأنها اكتسبت الفخامة من المضاف إليه ، فكأن التعامل مباشرة مع الله ورسوله ، والحفظ والقضاء والبر له سبحانه والرهبنة انفصال عن ذات الرسول ليكون أوقع في النفس وأثبت للمعنى ، وآكد للغرض .

استحضار المضاف إليه :

كما نجد حذف المضاف لإحضار المضاف إليه وحده في الذهن تنبيهًا إليه ، وحشدًا له لأنه أقوى تعبيرا وأشد إيحاء ، وأثبت للغرض ، فغراس الجنة سبحان الله والحمد لله . . . فهذه الصيغ واقعة في الدنيا وأصل العبارة ، ثمن غرسها وسبب امتلاكه : فحذف المضاف مبالغة ، وإبهاما وتخييلاً ، لأن صيغ الذكر هي نفس الغراس ترغيبا فيه .

ونجد الاستعاذة «أعوذ بالله من الهدم» واقعة على الهدم ، ونلاحظ القوة في الدعاء والخطاب ، وقد حذف المضاف «موت الهدم» إحضارًا للهدم ، لأنه الأهم في إثارة المشاعر وتحريك الخيال ، تصويرا لجدر يقع ، وسقف تتقوض ، وغبار يثار ، وصرخات تطول بيانًا لحال الهدم وتفظيعًا له حتى يتم اللجوء إلى الله تعالى بصدق كبير .

كما نجد التفنن الأخاذ في الحديث «الماء من الماء» ، وقد كان منذ أول الدعوة تيسيرا ، فالاحتلام والجماع بلا إنزال لا غسل فيه ، ويهمنا هنا حسن العرض وإيجاز الحكم ، وحذف مضافين في العبارة : إنما استعمال الماء بالغسل من نزول الماء ، فحذف وأبقى دعامتي المعنى ـ الماء من الماء ـ فهذا سبب الجنابة وهذا مزيل النجس ، وهو الأخير وقوعا وأسلوبا فهو الغالب القوى ، وتكرار هذا اللفظ جعل للأسلوب نضارة وماء وصفاء ومخاتلة عما لا يحسن ـ تفننا وأدبا وجمالا .

أما حديث «خلق الإنسان» فنلتقي فيه بظاهرة : الاحتباك وهو الحذف من كل من الطرفين لدلالة الآخر عليه شدا لأسر الأسلوب ، وشغلا للذهن والخيال في الحرص على المعاني ليثبت بعد الوصول إليها فضل ثبات لاسيما أن

المعنى غريب نوعا في العقل والعادة ، ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ، فهنا كلمات تكتب كلمة الرزق والأجل والعمل والشقاء أو السعادة ، ونلاحظ كيف بني الأسلوب ، على منواله تلاؤما بينهما جميعا ، وهذا من فن القول في الحديث .

المضاف إليه :

١- وقال ﷺ : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورًا ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[(١)].

٢- من دعائه ﷺ على قريش «اللهم اكفنيهم بسبع كسبع يوسف»[(٢)].

٣- قال ﷺ «لأن يغدو أحدكم كل يوم إلى المسجد فيتعلم آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين ، وثلاث خير له من ثلاث وأربع خير له من أربع ، ومن أعدادهن من الإبل»[(٣)].

ونلاحظ في جميعها حذف المعدود والاكتفاء بالعدد دالا عليه ، مذكرا أو مؤنثًا والأهم أن مع الإيجاز صرف الذهن عن المعدود ، وإحضار العدد ماثلاً في الخيال تأكيدا للمعدود ، ودعوة إليه ، وتسوية لأفراده في الأهمية ، مع إعطاء فرصة للخيال في الذهاب في تمثل المعدود كل مذهب ، وقد يحتاج الحذف إلى قرينة فيها معنى جديد كالحديث «اللهم اكفنيهم بسبع كسبع يوسف» ، وقد دل على المعدود ، سبع يوسف ، المتعالمة ، والتشبيه مع أنه قرينة يبين حال المشبه في قسوته ، وفي حذف السنين أيضًا تهويل وتفخيم لها ولما يكون بها من أحداث .

---

(١) التاج الجامع ١/٣٥ .

(٢) المرجع السابق ٤/١٥١ .

(٣) المرجع السابق ٤/٥ .

وفي حذف المعدود في حديث «القرآن خلابة وسحر» ، فالخيال يكاد يخلط من كثرة الحذف وسرعة الأسلوب بأربع محذوفات بين آيات «المشبه» وبين ناقات (المشبه به) قصدا إلى تأكيد الأفضلية والخيرية من الآيات على النياق ، استحضارًا للطرفين وتفخيمًا للمحذوف وترغيبًا فيه .

حذف المفعول :

القصد إلى أصل الصفة :

١- قال ﷺ «طعام أول يوم حق ، وطعام الثاني سنة وطعام يوم الثالث سمعه ، ومن سمع سمع الله به»[١] ، وقال ﷺ «من ضار ضار الله به ، ومن شاق شاق الله عليه»[٢] ، وقال «ملعون من ضار مؤمنًا أو مكر به»[٣].

٢- شاهد الأقرع بن حابس رسول الله يقبل أحد ابني بنته فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم ، فقال ﷺ «من لا يرحم لا يرحم»[٤]

٣- قال ﷺ : «من أحب لله وأبغض لله ، وأعطى لله ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان»[٥].

٤- قال عليه الصلاة والسلام : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان»[٦].

هذه الأحاديث قطع فيها الفعل المتعدي عن المفعول قصدا إلى أصل الصفة وإثباتها في ذاتها ، فهناك صفات التسميع والمضادة والشقاق والرياء وعدم الرحمة . . . ولأنها صفات نفسية لا يمكن أن تجزأ وإنما توجد أو لا توجد ، ولقد كان الجزاء من جنس العمل ترهيبا ، وإذا نظرنا إلى الحديث الأول : «من سمع سمع الله به» نجد الإنكار على هذه الصفة ذاتها قليلة أو كثيرة ، كما في الحديث «من ضار ضار الله به» والفعل ضار حذف منه المفعول لنفس الإنكار

---

(١) التاج الجامع ٣٠٤/٢ .
(٢،٣) المرجع السابق ٢٣/٥ .
(٤) المرجع السابق ٧/٥ .
(٥) المرجع السابق ٧٨/٥ .
(٦) المرجع السابق ٤٤/٢ .

والترهيب ، وحين نأتي إلى نفس الفعل واقعا على مفعول في الحديث « معلون من ضار مؤمنا » نجد تخصيصا ثم قصدا إلى ذكر المفعول بوصفه الباعث على الإشفاق لتقبيح المضارة ، والترهيب منها ، وأنها وقعت غير موقعها ظلما ، ولذا صدر الحديث بالدعاء باللعنة ، بينما الحديث الأول قصد إلى تقبيح الاتصاف بالصفة ذاتها ، ولا ريب أن الإطلاق في الجزاء سمع الله به يرائى الله به - لا يرحم مع نسبته إلى الله تعالى يمنح الوعيد قوة دافعة في النفوس .

وقد نجد العمد إلى أصل الفعل ، مع قرنه بعديد من الأفعال ، كشفا للأعماق وتهيئة للجزاء ، من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان ، وهذا ترغيب في التوجه بهذه الصفات مخلصة لله ، أما التنفير ففي الحديث آية المنافق ، فصفاته لازمة متأصلة في أعماقه لا يستطيع عنها حولا ، ولأنها بغيضة الأثر فقد قدم الحكم عليها بأنها من علامات النفاق .

البيان بعد الإبهام :

من قوله ﷺ يوم بدر « اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد »[1] .

قال ﷺ « الوتر حق فمن شاء أوتر بسبع ومن شاء أوتر بخمس ومن شاء أوتر بثلاث ومن شاء أوتر بواحدة »[2].

ولقد حذف في الحديثين مفعول المشيئة إبهاما عند البلاغيين ، ثم دل عليه جواب الشرط الذي بينه ليقع في النفس أي موقع .

وإن كنا نلمح في الحديث الأول : ضيق المقام بالانفعال الخاص والابتهال الصادق والخوف الشديد من ضياع زهرة الإسلام الغضة ، إنها مخاوف نبي كريم ولكن لسانه الطاهر لا ينطق بها تأدبا مع الله ، وتشوفًا لأمل قريب في النصر .

---

(١) التاج الجامع ٤/١٢٢ .

(٢) المرجع السابق ١/٢١٣ .

حذفه نفورا :

من حديث أصحاب الغار من قول الثاني «اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء فطلبت منها . فأبت حتى آتيها بمائة دينار فبغيت حتى جمعتها»[1] .

وقال ﷺ «التثاؤب في الصلاة من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع»[2].

وقال ﷺ لمن تخطى الرقاب يوم الجمعة : «اجلس فقد آذيت»[3].

قال أعرابي بعد الصلاة ، من دعا إلى الجمل الأحمر ، فقال ﷺ : «لا وجدت ، إنما بنيت المساجد لما بنيت له»[4].

والمفعول في الحديث الأول : «طلبت منها فأبت» يعرض عنه الحديث حياء وأدبا وتعليما لهما ، وفي التثاؤب : نص أنه من الشيطان وقد ذكر مادة التثاؤب إحضارا له في الأذهان ثم جاءت معالجته ، ونلاحظ مادة الفعل كظم فيها مجاهدة ومعاناة مع حسن التخييل لأنه من كظم القربة إذا ملأها ثم أراد ربطها ، مع سبق الفعل بلام الأمر شحذًا للإرادة في المقاومة ، ثم حذف المفعول بعد هذه التهيئة النفسية ليكون الإعراض عنه (التثاؤب) ، والتنفير فيه قد وجدا استعداد من المخاطب للنفور والإعراض ، فالأحرى أن يسقط من الأسلوب مراعاة للحالة النفسية ، وأن يكظم فلا يخرج في الواقع ملاءمة وتفننا والحديث : «اجلس فقد آذيت» دل الحذف على النفور بشمول الإيذاء المؤكد بقد كما نجد ضيق المقام ، والضيق النفسي من هذا العمل في مسجد الله وعلى قرب من النبي ﷺ من تخط للرقاب وإهمال في التأخر ، فهنا تعانقت مقتضيات الحذف من ضيق المقام ، والإنكار ، وإرادة العموم ، ومثله : الحديث «لا وجدت» ، يعني الجمل فالحذف دل على نفور من الداعي والمدعو إليه ،

---

(١) التاج الجامع ٥٣/١ (٢) المرجع السابق ٢٠٧/١ .

(٣،٤) المرجع السابق ٢٨٩/١ .

والدعوة جميعا : ولا بأس أن نقدم هذا الحديث لأنه يثير الانتباه «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»[1] ، وقد ذكر مفعول به الفعل الثاني ترد وهو النار وإنه لتصوير يثير الخوف الإنساني حتى وهو غير واقع ، جزاء ، والنار هنا تقابل «الغيبة» المحذوفة التي ردها المسلم عن عرض أخيه ، ولم يذكرها أنفة وتقبيحًا ، وإنما ذكرها مقابلا رهيبا مبالغة في التنفير منها ، والجزاء من جنس العمل فكأن الغيبة نار وردها رد للنار ، وكما أن العرض غال فالوجه حساس ، والغيبة مردودة فهي ساقطة في الواقع فتركت في الأسلوب ملاءمة ، والحديث جامع بين الترغيب في نصر المسلم والترهيب من غيبة المسلم ، وبين الدنيا وبعض ما يقع فيها والآخرة ولون من مشاهدها .

المحافظة على السجع :

والمحافظة على السجع أو رعاية الموازنة ، وحده أو مع الاختصار غرض بلاغي قديم ، وسوف نرى أنه لا يقوم بالأساليب المسوقة لعلاج فكرة وتعبير عن عاطفة وإرادة ، ونقدم هذه الأحاديث :

من دعائه ﷺ «اللهم اغفر لي ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت ، وما أعلنت»[2] ، ومن دعاء القنوت : «اللهم اهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شر ما قضيت»[3] ، ومن حديث الحياء : «استحيوا من الله حق الحياء ، قلنا يا رسول الله إنا نستحي والحمد لله ، قال : ليس ذاك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء : أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، ولتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»[4] .

والحديث الأول : دعا بالمغفرة ، ونلمس هذا الإلحاح الخائف ، والتموج الصادق ، والمغفرة ستر ومحو ، والتصريح بالذنب ينبو عن المقام ، وحذفه

---

(١) التاج الجامع ٥/٥٤ .
(٢) المرجع السابق ٥/١١٩ .
(٣) المرجع السابق ١/٢٠٠
(٤) المرجع السابق ٥/١٥٩ ، ١٦٠ .

أليق بالمناجاة حياء من ذكره ، وطلبًا لمحوه ، فهنا حذف للذنب من الأسلوب ، وطلب لمحوه من الصحف ملاءمة بين واقع الكلمة ، وواقع الحال النفسي .

والحديث الثاني : صلاة ونداء وطلب للآلام من صاحبها ، وصدق في النجوى بإلحاق الداعي فيمن هداهم الله وعافاهم ، وتولاهم ، ثم ليبارك في عطائه ويقي من قضائه ، ونلمح من أسرار الحذف التواضع النبوي ، والتذلل الكامل لله وحده ، ثم تعظيم من وقع ، وما وقع عليه الفعل المنسوب إلى الله تعالى ، هداية ومعافاة وتوليا ثم الاعتراف بالعطاء والدعاء بالبركة فيه ، والمفعول هنا محذوف للتعظيم ، أما مفعول الفعل «قضيت» فقد حذفه خوفا وإبعادًا عن تصوره في الخيال تضرعا في منعه وأملاً في دفعه .

أما حذف المفعول في حديث الحياء : «الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى» ، فقد حذف رغبة عنه ، وبترا لما يثيره ، وإعراضا عما يسببه ، أليس في الرأس اللسان والفم ومعظم الحواس ، وإضمارها كذكرها ، وشرورها أكثر من خيرها مع دلالة كلمة الحياء المكررة على المقصود من المفعول ، وكذا ما يحويه البطن ويتصل به من التطلع إلى أموال الناس وأعراضهم مما يحسن السكوت عنه . كل ذلك في الأحاديث من الإيجاز البارع والموسيقى الخاصة من ابتهالات تنساب في نغم شجي وإيقاع أخاذ يلائم اهتزازات المشاعر في نجواها ، ومن سجع يتزن في حديث الحياء ونلمح ثقل الحركات في «وعى ، حوى» ، تعبيراً بالصوت والحركة عن أثر ثقيل الوقع على النفس الطاهرة ، من مدلولات غير مستحبة ، ثم جاءت الألف لتطلق الحركة في الفعلين ذهابا بالخيال في مداها وتخليصا للوهم من أسرها ، ليحتويها الحس والعقل والذاكرة وهذا قمة الفن الأدبي .

التفخيم :

قال رسول الله ﷺ لابن عباس «احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك» [1] .

---

(١) التاج الجامع ٢١٢/٥

وقال عليه الصلاة والسلام «اسمعوا وأطيعوا ، وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»[1].

قال عليه الصلاة والسلام «من مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين»[2].

والمحذوف في الحديث الأول «دين» مرتين ، واكتفي بلفظ الجلالة ، تفخيماً للمحذوف وترغيباً في حفظه ، لأنه اكتسى قداسة ونبلاً من إضافته ، وكأن حفظه حفظ لله سبحانه ، والثاني يدعو إلى جمع الكلمة ووحدتها والانقياد لحاكم مسلم بلا خروج أو نزاع وقد حذف مفعولي اسمعوا وأطيعوا يعنى قول الأمير وأمره ، تفخيماً لهما كأن ذكرهما يحد من نشاط العقل والخيال في توسيع دائرتهما فحذفهما لذلك ، ولتأكيد ما قصد إليه من تفخيم ما يقول الأمير أو يأمر به دعوة إلى السمع والطاعة .

والحديث الأخير : سر الحذف التعظيم ، والدفع الحثيث ، وتقدير المحذوف ، وبلغ فيه «مراده ومناه» إذ به يتحقق مصالح الناس ، ولما كان هذا المراد مدفوعاً إليه ـ ولم يبلغ بعد كان حذفه حثًّا على بلوغه وإعظاماً لأمره .

التهويل والتعبير عن شعور الخوف :

قال ﷺ «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل»[3].

وقال عليه الصلاة والسلام في الكسوف «إن هذه الآيات التي يرسل الله لا تكون لموت أحد ولا لحياته ، ولكن الله يرسلها يخوف بها عباده ، فإذا رأيتم منها شيئًا فأفرغوا إلى ذكر الله ودعائه واستغفاره»[4].

وقد حذف مفعول خاف ، قصداً إلى تصور الخوف مع شيء من التعميم يقوي التهويل ، فالخيال بهذا الحذف يتصور في مداه الواسع والضياع والبيان

---

(١) التاج الجامع ٣/٤٥
(٢) المرجع السابق ٢/١٠٥
(٣) المرجع السابق ٥/٢٠٤
(٤) المرجع السابق ١/٣١٠

وأهوال الليل طوى ذلك لذلك ليترتب الإدلاج السريع والتنفيذ الحاسم علاجاً لبواعث الخوف ومدحاً للكيس الفطن ، وحذف ضمير الآيات في «يرسل الله» مع إسناد الفعل إلى لفظ الجلالة تهويلاً في هذه الآيات وهي ظواهر كونية مهولة حقًّا تبعث الفكر على التأمل في نظامها وكنهها واختلاف مشاهدها ، ولا بأس بعد أن تم إعمال الفكر والجري شوطاً في سبب ظاهرة الكسوف وأن القهار تحكم في هذه الكائنات المهولة وفي ذلك ما فيه من خوف وهول ، لا بأس أن تذكر بعد «يضميرها» «ولكن الله يرسلها يخوف بها عباده» «تأكيداً لما عاشه الفكر واستشفه الخيال» .

وقد يلحق بهذا حذف المفعول ـ مع دلالة المقام عليه جذباً للانتباه لترتب أمر مهم عليه كالحديث : «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله» من حديث ابن عباس السابق [1] ، فقد حذف المفعول من «سأل» : لما فيه من غرابة وكأنه تصريح بسؤال أحد ثم أقر الفعل ونقص المفعول بمفعول آخر تقوية في الحكم وترغيباً في الثاني بعد إهمال الأول ، وقد يجوز أن يضمن الفعل معنى اللازم ويقطع عن تعديته كأن المراد إذا نويت السؤال ، وأردت التبذل فالجأ إلى الله وإذا عزمت على قضاء أمر فاستعن بالله .

العموم مع الاختصار :

قال ﷺ «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر» [2] .

وقال ﷺ : «ألا وإنى قد وعظت وأمرت ، ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر» [3].

---

(١) التاج الجامع ٥/٢١٢

(٢) المرجع السابق ٥/١٧

(٣) المرجع السابق ٥/٢٤١

من تعليمه ﷺ لخالد بن الوليد «اللهم رب السموات وما أظلت ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت كن لى جاراً من شر خلقك كلهم» [1] .

وفي الأول نص على مفعولين «صغيرنا وكبيرنا» وحذف مفعولي «يأمر وينه» قصداً في الذكر إلى النفاذ إلى علاقة خاصة ونوع من المعاملة للصغار والكبار وهم أولى بالرحمة والتوقير وأدل على إيمان المؤمن ، وأما الحذف فلعموم المفعول ، أحد الناس تشديداً في الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن بهما بقاء الإسلام ثم تخفيفاً على الداعي فليأمر في حياته ، ولينه ولو كان قليلاً حسب طاقته ومواهبه .

ومع وضوح العموم في الحديث الثاني وهو : وعظت ، وأمرت ، ونهيت يعنى الناس أو المخاطبين ، يوجب المقام وهو الغضب النبوي إيجازاً شديد اللهجة لا يبدو مع التفصيل ، مع الحياء والبعد عن المن عليهم بالوعظ والأمر والنهى لأنه مكلف بذلك والله يهدى من يشاء .

وفي الثالث قد يمكن القول بأنه حذف المفعول إرادة العموم والاختصار والمحافظة على السجع ولكن أهم من ذلك ما نلمسه من صدق التعبير عن التضخيم والتفخيم والتكثير بهذا الأسلوب الرمزى الذي يكشف بعض الحقيقة عن عالم العظائم ويدع الباقي للفكر والخيال يجريان ، فماذا وكم أظلت السموات ، وماذا وكم أقلت الأرض ، وكم ضلت الشياطين ، إن الوجدان الإنساني ليتوه في هذه العوالم والمخلوقات الرهيبة التي سلسلها الحديث في نسق عجيب بدءاً من الأعلى إلى الأدنى إلى ما لا تراه العيون والأوهام مما قد يجري من الإنسان مجرى الدماء لا جرم أن يصدق الالتجاء إلى خالقها ومدبر أمورها .

---

(١) التاج الجامع ١٣٨/٥ .

الترغيب :

قال ﷺ «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها» [1] .

وقال عليه الصلاة والسلام «من غسل يوم الجمعة واغتسل ثم بكر وابتكر ، ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام فاستمع ولم يلغ ، كان له بكل خطوة عمل سنة ، أجر صيامها وقيامها» [2].

وفي حديث القرآن حذفت ثلاثة مفعولات «القرآن» ـ «الدرجات» ـ «القرآن» ، والحذف هنا يجعل الصورة قوية ملحوظة ، فهناك ارتقاء للدرج حسي معروف ، محفوف بالقراءة مسبوقة بها مصحوبة بالترتيل ، وجو القداسة والابتهاج والإعزاز ، سيطر على الحديث ترغيباً في القرآن وفي الجنة .

والحديث الثاني : فيه المفعول المحذوف متعين بدلالة الغسل المكرر يوم الجمعة إيماء إلى الترغيب في الغسل وتطهير الجسد لتكون الطهارة شاملة للروح ، وكذا حذف مفعول استمع لتعينها بالـ(الخطبة) ترغيباً في سماعها إذ هي من أهم شعائر الصلاة لآثارها الكبرى في نفع المؤمنين .

حذف الجملة :

١- حذف فعلي الشرط والجواب

قال ﷺ «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه ، فقد أوجب الله له النار فقال رجل : وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله قال وإن قضيباً من أراك» [3].

وقال ﷺ : «تهادوا فإن الهدية تذهب وحر الصدر ، ولا تحقرن جارة لجارتها ولو شق فرس الشاة» [4].

وقال ﷺ : «بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» [5].

---

(١) التاج الجامع ٥/٤

(٢) المرجع السابق : ١/٢٨٠-٢٨١ .

(٣) المرجع السابق : ٨٠/٤ .

(٤) المرجع السابق ٣٩/٢

(٥) المرجع السابق ٦٦/١ .

وقال ﷺ : «إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لآتوهما ولو حبوا»[1].

ويلاحظ في هذه المجموعة أن الداعي لحذف فعلي الشرط والجواب : الاحتراز من العبث ظاهراً ، لوجود قرينة في الكلام سابقة على الأداة ، ونلمس دافعاً آخر نفسيًّا وراء الحذف ، ففي الحديث الأول : نجد الترهيب واضحاً ، فما لا يخطر على بال لتفاهته ـ إن اقتطع من حق امرئ مسلم ـ أحبط العمل ، ترهيباً ، وتربية للأمانة وتخويفاً من الظلم ، والأصل : وإن كان المقتطع قضيبًا من أراك لا يحل له ، أو أدخله النار ، مع المبالغة في القليل الحسن .

كما نجد الترغيب في هذه الأحاديث : ولو شق فرس شاة ، ولو آية ، ولو حبواً ، فالعقل يدرك المحذوف وبقيت لو بما فيها من معنى التعليق آخذة بأعناق جملتين ، وقد أكدت المنع والندرة ما صدرت به الأحاديث : لا تحقرن ـ بلغوا ـ لو يعلم ـ حثًّا دافعاً ، ومبالغة في القلة والندرة ، وهو منطلق الترغيب الشديد .

حذف فعل الشرط وجواب شرط سابق :

قال رسول الله ﷺ «إذا غضب أحدكم ، وهو نائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»[2].

وقال عليه الصلاة والسلام «من اكتحل فليوتر ، من فعل ، فقد أحسن ، ومن لا فلا حرج»[3].

وأصل الكلام: فإن ذهب عنه الغضب كان خيراً له وإن لا يذهب فليضطجع.

فاقتضب العبارة بحذف جملتين والاستغناء بلا النافية بدلالة القرينة إيجازاً ، وحسن سبك ، وملائمة لوصف شعور الغضب وعلاجه بسرعة يتطلبها الغضب

---

(١) التاج الجامع ٥/٤٣٣ (٢) المرجع السابق ٥/٥٢

(٣) المرجع السابق /٩٥

السريع، وقفزاً إلى ما يترقبه الفكر من هذا العلاج المهم وفي هذا إثارة للانتباه، وإعمال للقوى النفسية لمتابعة الأسلوب وفهم باطنه، دفعاً للعمل بمقتضى الأمر النبوي.

وفي الحديث الثاني: اقتصر الحذف على فعل الشرط مع دلالة لا النافية عليه إيجازاً وتفنناً مع نصب قرينه لفظية تغني عن الذكر.

حذف جواب الشرط:

قال ﷺ: «لا يدخل أحد الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً. ولا يدخل النار أحد إلى أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليكون حسرة»[1].

والحديث يرسم صورة للنعيم، والعذاب المعنوي فهذا داخل الجنة يكشف عنه الحجب ليرى لنفسه مقعداً باسمه، لو كان أذنب في الدنيا لجلس عليه في النار.

وداخل النار يرى أيضاً مقعده في الجنة لو كان أحسن لدخل الجنة، وتنعم، ولو هنا للامتناع التام مسلط على الماضي في الدنيا، وجوابها المحذوف أشد امتناعاً، والموقف رهيب لا يحتاج التوضيح والتصريح، وقد ترك في جانب صاحب الجنة تكريمًا ومراعاة للشعور، وفي جانب صاحب النار لو أحسن - قطعاً - لأحلامه وإزعاجاً وحسرة له؛ ولذا كان للتعليل النفسي بعدًا قويًا: «ليزداد شكراً» و«ليزداد حسرة».

حذف جملة في غير الشرط:

عن علي رضي الله عنه «لما نزلت ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً» قال: يا رسول الله في كل عام؟ قال: «لا ولو قلت: نعم لوجبت»[2].

---

(١) التاج الجامع ٥/٤٣٣

(٢) المرجع السابق ٤/١٠٨

وقال عليه الصلاة والسلام : للأنصارى وقد هدم قبة كان أعرض النبي ﷺ عنه بسببها «أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا مالا إلا مالا» يعني ما لا بد منه[1].

في الأول : جاء سؤالهم موجزاً حذف منه الفعل فجاء الجواب النبوي على طريقته ثم طغى عليه إيجازاً واقتداراً ، وأصل الأسلوب ، ليس الحج واجباً كل عام ، ولو قلت نعم إنه في كل عام تحجون لوجبت ، فأغنى بحرفي الجواب عن جملتين والمقام هنا مقام النفور من الإلحاح بالسؤال عن كل أمر سكت عنه الشارع يسراً . وذلك يقتضى الإيجاز أيضاً ، والحديث الثاني : حذف مدخولي لا النافية للجنس وهما جملة يعني : إلا ما لا بد منه ، وقرينة الحذف : الاستثناء وذكر لا ، ولعل الحذف هنا لمقام الإعراض عن التفاخر بما لا يبقى ، ولا يفيد وإشارة إلى أن أمور الدنيا لا ينبغي قصر العمر والفكر عليها بل ما يوفر مجرد الكفاف والإيواء والستر هو المحمود .

ثانياً : الإيجاز بالقصر ـ جوامع الكلام

وقد امتاز هذا اللون من الإيجاز النبوي بسمات خاصة ، ونورد طائفة من الأحاديث نستجلي فيها تلك السمات .

١- قال رسول الله «ما قل وكفي خير مما كثر وألهى»[2] .

٢- «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ، الصحة والفراغ»[3] .

٣- «الضعيف أمير الركب»[4] .

٤- «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا»[5].

٥- «إياكم ومشارة الناس فإنها تدفن الغرة ، وتظهر العرة»[6].

---

(١) التاج الجامع ٥/١٦٥

(٢) تمييز الطيب من الخبيث ص ١١٤

(٣) رياض الصالحين للنووى ص ٢٧

(٤) إعجاز القرآن ، الرافعي ص ٣٧٦

(٥) عبقرية محمد ، العقاد ص ٧٩

(٦) الفائق في غريب الحديث ، الزمخشري ٢/١١٠

هذه جملة من الأحاديث النبوية تجمعها صفة الإيجاز والتركيز واستثمار أقل ما يمكن من الألفاظ ـ برفق ـ في تأدية أكثر ما يمكن من المعاني .

وفي الحديث الأول «ما قل وكفي . . دلالة على أن القناعة النفسية وإشباع متطلبات المرء على حد الكفاية فيه خير كثير ، لأنه سينبعث لتحقيق رسالته في الحياة وهذا أفضل من كثرة في متاع الدنيا تكون حجاباً يصرف المرء عن رسالته ، ويبعده عن طريق ربه ، والإيجاز هنا جاء ثمرة لاختيار الألفاظ ، ونظمها ، فهنا قليل ليس على إطلاقه ، ولكنه يكفي ، وهي كفاية شاملة لمتطلبات المرء ، وهذا ما يبغيه من سعيه ، وفي الجانب الآخر كثير يلهي وهذا اللهو ينسحب على كل الشهوات التي في إشباعها إلهاء وصرف عن الطاقة والقلة المحددة بالكفاية مع مقابلتها بالكثرة الملهبة بما لهما من معان وظلال ، ثم المفاضلة المعبرة بصدق وعن حقيقة من حقائق الناس والحياة أعطى الإيجاز سمة الجدة والخلود .

والحديث «الضعيف أمير الركب» يمثل خلق الإسلام في الرحمة ، وحسن المعاملة وإرشاد بالعطف على الضعيف لاسيما في الملمات وسر الإيجاز هنا : أنه منح الضعيف صفة الإمارة ، وجعل الركب أتباعاً ينقادون لأمره ويصدرون عن إشارته ، وقد أعطى التعبير «أمير الركب» معنى واسعاً ، وإيحاء شاملاً لا ينتهي ، يدور حول ركب الأمير وأمير الركب ، وقد جاء التشبيه في خدمة الإيجاز بما أدى من مبالغة في إلحاق الضعيف أو تصويره بالأمير ، محذوف الأداة ولو جاء مرسلاً لا نتقصى الأسلوب من أساسه ولما وفى بالغرض وهو بر الضعيف ، ورحمته ، خاصة فيما يعني المرء فيه بنفسه ، وهذا يوضح الطبع والفطرة ، فالمعاني تختار ما تخرج به من أثواب الألفاظ .

والحديث : «اعمل لدنياك» : توجيه للمسلم بالاعتدال والتوازن في سلوكه وحياته بين الدنيا والآخرة ، فلا ينسى نصيبه من الدنيا ، لأنها مزرعة الآخرة ، وعليه واجبات ورسالة ، الآخرة فيخسرهما معا ، بل في الحديث أكثر من ذلك : الأمر بالسعي والدأب في شئون الدنيا «كأنك تعيش أبدا» وهذا التعبير يعطى

للسعي انطلاقات جبارة ، فلو عمل المرء من أجل الدنيا ـ وهذا ما تفيده اللام الجارة «للدنيا» على أنه خالد لملأ الدنيا سعياً وجلاداً ، وحتى لا يطغى هذا الجانب قيده في الآخرة «كأنك تموت غداً» فأعطى توازناً خاصًّا ، ومن يمت ويعرف ميعاد الموت وإقباله على الله لابد أن يجرد نفسه للطاعة فكأن الإرادة مضغوطة بين مطلبين عسيرين ينبغي التوفيق بينهما ، فقد جمع هذا الحديث كما يقول العقاد علم السلوك في الدنيا والدين كله في أقل من سطرين[1].

ونرى هنا كيف تركب الأسلوب : الأمر بالعمل ، ودخول اللام الجارة التعليلية مع إضافة الدنيا إلى كاف المخاطب : اعمل من أجل دنياك أنت ، ثم ترقى على سبيل المبالغة فأتى بالتشبيه «كأنك تعيش أبداً».

وفي «أبداً» تأبيد يطغى على حدود الزمن والحياة فترك على جانب المعنى معاني ثانوية مديدة ، وكرر هذا في جانب الآخرة غير أنه أتى بكلمة «غداً» قاطعة حبل الآمال على واقع رهيب إنه الموت القريب المعروف وقته مع المقابلة بين الدنيا والعيش والأبدية ، وبين الآخرة والموت وغداً ، فتأكد المعنى وجاء التوازن ، والحذر من الخمول أو الركون إلى الدنيا بالجملة ثم الحذر من فجأة الموت فهو الاعتدال أسلوباً ومعنى وواقعاً .

والحديث «إياكم ومشارة الناس فإنها تدفن الغرة ، وتظهر العرة» تحذير من إساءة الناس وتجاذب الشر معهم لما فيه من إثارة الأحقاد والضغائن التي تغطي على الإحسان فلا المؤذي أفاد من خيراته ولا هو كتم سيئاته ، قال في الفائق «والمعنى أنهم إذا نالهم منك مكروه كتموا محاسنك ، ومناقبك ، وأبدوا مساويك ومتاعبك»[2].

وقد بدأ الحديث بأسلوب التحذير الخاص بإياكم ـ وقرنه بمشارة الناس تنفيراً منها ، ثم أتى بتعليل التحذير وبيان آثار المشارة «تدفن الغرة» وقد صور الأعمال الطيبة بغرة ظاهر لائحة بوضاء في أبرز مكان في وجه الفرس

---

(١) انظر : عبقرية محمد للعقاد ص ٧٩ (٢) الفائق ٢/١١٠

دليلاً على دفن الإساءة الواضح المآثر ، بل هو دفن لا حس بعده ولا خبر ، كما جعل خافي السيئات عرة تنظر وتستقذر ، وكأن الحديث كله طلقات رصاص أو دقات نذير كل كلمة لها إيحاء يشغل الخاطر والوجدان ، والاستعارة أعانت بما فيها من إيجاز على تركيز الأسلوب وقوته .

من هذا العرض السريع يتضح لنا أن الإيجاز بالقصر قد اتسم فيها بالدقة وقوة التصوير والطبع الخالص فهو من جوانب الكلم التي منحت النبي ﷺ من لدن ربه تعالى ، وهذا ما يفسر كثرتها في البيان النبوي ، فإن البليغ في أية أمة لا يورث الأجيال إلا قليلاً من الحكم ، يقول الرافعي :

«وهذا الضرب من الكلام الجامع هو الذي يمتاز البليغ في كل أمة بالكلمة الواحدة : من مثله أو الكلمتين ، أو الكلمات القليلة ، ولو ذهبت تحصيه في العربية ما رأيته إلا معدوداً»[1].

ولقد ابتدع النبي ﷺ في اللغة العربية أساليب وتراكيب لم تسمع من أحد قبله ولا سمع مثلها من أحد بعده ، ولقد ورد أن علي بن أبى طالب رضي الله عنه قال : «ما رأيت أفصح من رسول الله ﷺ ، ما سمعت كلمة من عربي فصيح إلا وقد سمعتها منه ، وسمعته ﷺ يقول : «مات حتف أنفه» ما سمعتها من عربي قبله ، قال ابن دريد يعني : خرجت روحه من نفسه لم يجرح ولم يقتل ولم يكلم» ومن ذلك أيضاً : «يا خيل الله اركبي»، وقوله : «لا ينتطح فيها عنزان»، وقوله : «الآن حمى الوطيس»[2] وقد سمى ابن أبي الإصبع هذا الضرب : «سلامة الاختراع من الابتداع» وأضاف قوله : «لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين» ، و«السعيد من وعظ بغيره» على سبيل التمثيل[3].

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٣٦٦

(٢) انظر : الكنايات ، الجرجاني ص ١٣٨ ، والبيان والتبيين ٢٩/٢ ، وما بعدها وإعجاز القرآن للرافعي ص ٣٦٦ وما بعدها .

(٣) انظر : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ، ابن أبى الإصبع ٤٧٤/٣

ويمكن أن ننوع جوامع كلمه ﷺ نوعين :

١- إيجاز بالغ جامع ناسب مقتضى الحال وجاء على نهاية البراعة وهو الغالب في البلاغة النبوية .

٢- حكم وأمثال منتزعة من واقع الناس والحياة ، معبرة عن طبائع إنسانية ، أو حقائق اجتماعية أو نفسية ، والحكمة : قول بليغ موجز مصيب يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالحياة ، ويتضمن حكماً مسلماً تقبله العقول ، وتأنس به الأفئدة ، وتنقاد له المشاعر ، وقد تشتهر الحكمة وتذيع بين الناس فتصبح مثلاً[١].

وقد أذيع عن النبي ﷺ الكثير من هذا النوع ، مما حدا بعض أئمة الحديث ، إلى أن يجمعوا منه قدراً صالحاً يشرحونه ، وكان منهم الإمام النووي في الأربعين النووية ، غير ما نبه إليه علماء البلاغة والأدب» وهذه الحكم التي قد يحللها علماء البلاغة حتى إذا غلبهم فائق حسنها ، وباهر بلاغتها سلموا بالعجز قائلين : إنها غاية لا ينتهي إليها وصف واصف[٢] .

مناقشة العسكري وابن الأثير :

وقد نجد من أحسن التقعيد وأخطأ في التطبيق من البلاغيين .

ومنهم أبو هلال العسكري في حديثين أوردهما مثلاً للمساواة في الكلام هما قوله ﷺ : «لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنما ، والزكاة مغرمًا» وقوله : « إياك والمشارة فإنها تميت العرة وتحيي الغرة»[٣] وتلحظ قوة الإيجاز فيهما : ففي الأول تشبيه الأمانة بالغنيمة في حبها والتلهف إليها ، وتشبيه الزكاة بالمغرم في كراهيته والنفور منه تشبيهاً بليغاً فيهما له إيحاءاته كما أن في الحديث اكتفاء إذ الأصل : فإن رأت الأمانة مغنما ، والزكاة مغرماً فالشر

---

(١) انظر : الأمثال في النثر العربى ، دكتور عابدين ص ٢ ، ٣

(٢) انظر : المثل السائر ٣٤٣/٢ ، والطراز ٨٩/٢

(٣) الصناعتين : ص ٤٧٣

يصيبها ، فحذف ذلك اكتفاء بما يدل عليه . ذكاء في الأسلوب ، وإيجازاً موحياً ، أما الحديث الثاني فقد سبق شرحه ونلخص ما فيه هنا :

١- الاستعارة المكنية : في «الغرة» (تميت الغرة) والتصريحية في «تظهر الغرة» وقد رواها بلفظ (تحيى) فتكون مكنية أيضاً وهي أبلغ .

٢- التحذير بصورة مباشرة مع قرن المخاطبين بالمشارة ، وحذف فعل التحذير والاكتفاء بالضمير : إياك ، وفي الرواية السالفة إياكم مبالغة في التهديد الموحي .

٣- اختيار ألفاظ معبرة كالغرة ، والعرة .

على أن أبسط ما يدل على الإيجاز في الحديثين التشبيه البليغ والاستعارة ؛ لأنه من خصائصهما المعهودة ، وذلك كله ينفي المساواة التي ادعاها أبو هلال العسكري ، أما ابن الأثير فقد سمى المساواة إيجازاً بالتقدير ومثل لهما بدعاء النبي ﷺ لأبي سلمة رضي الله عنه عند موته «اللهم ارفع درجته في الآخرين ، واخلفه في عقبه في الغابرين ، لنا وله يا رب العالمين» ثم قال بعد شرحه : وهذا من الإيجاز البليغ الذي هو طباق ما قصد له ، وكلام النبي ﷺ كله هكذا كما قال : «أوتيت جوامع الكلم» وكذلك ورد قوله ﷺ يوم بدر ، فإنه قال : «هذا يوم له ما بعده»[1].

فكيف تكون المساواة ، أو الإيجاز بالتقدير الذي يتساوى فيه جانبا اللفظ والمعنى من جوامع الكلم ، وابن الأثير نفسه يفسر الجوامع بأنها الكلم الجوامع للمعاني[2] .

على أن ما مثل به من حديث «هذا يوم له ما بعده» واضح فيه الإيجاز البالغ من أنه يوم خطير مشهود يؤثر في التاريخ ، ومجرى الأحداث ، فإما رفعة شأن للإسلام بالنصر في أول غزوة ، وعلو كلمة الحق ، وإما هزيمة تئد الحق

---

(١) انظر المثل السائر : ٢/٣٣٦ ، ٣٣٧

(٢) المرجع السابق ١/٩٦ وما بعدها

أهله . صفوة القول : إن منشأ الخطأ عند العسكري وابن الأثير أنهما أوردا أمثلة نبوية للمساواة مع وضوح الإيجاز فيها بقوة كما سبق .

الإطناب :

البلاغيون والإطناب في الحديث :

ويمكن تنويعهم فريقين :

الأول : ينكر الإطناب النبوي خاصة ويمثلهم من القدماء : قدامة بن جعفر الذي يقول : « لا ترى في الحديث من الرسول ﷺ ، والأئمة شيئاً يطول وإنما يأتي على غاية الاقتصار ، والاختصار »[1] .

ومن المحدثين الدكتور محمد الصباغ الذي تابع الدكتور محمد عبد الله دراز في إنكاره المساواة ، والإطناب في الكلام البليغ[2] .

قال الصباغ :

« كان يغلب على البيان النبوي الرفيع ، القصر ، فقلما كان يطيل ﷺ إذا تكلم ، إلا ما يروى عنه في بعض الحالات إذا اقتضت ذلك :

فقد روى أبو سعيد الخدري أنه ﷺ : خطب بعد العصر ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف ، وليس معنى هذا أن كلامه ﷺ في هذه الخطب قد جانب الإيجاز ، فإننا عندما ننظر في هذه الخطب التي رويت نجد سمة الإيجاز ملازمة لجملها ، واقرأوا إن شئتم ما نقل أبو سعيد الخدري من هذه الخطبة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء »[3].

---

(١) نقد النثر المنسوب لابن قدامة ص ١٠٩

(٢) انظر : النبأ العظيم ، دكتور محمد عبد الله دراز ص ١٢٢ وما بعدها

(٣) الحديث النبوي ، الصباغ ص ٨٦ وما بعدها

الثاني : أن الإطناب موجود في البيان النبوي ويمثلهم ابن الأثير ، والعلوي من القدماء ، والرافعي وعبد الحكيم بلبع من المعاصرين .

وقد أورد ابن الأثير حديثا به تكراراً[1] والعلوي حديثين في المواعظ يغلب عليهما الإيجاز[2].

واستدل الرافعي وبلبع بحديث أبي سعيد الخدري السابق ، ولكن الرافعي استدرك بذكاء ، أن الإقلال كان الأعم الأغلب ، حتى ورد أنه كان يأمر بقصر الخطبة فروى أبو الحسن المدائني قال تكلم عمار بن ياسر يوماً فأوجز ، فقيل له : لو زدتنا قال : أمرنا رسول الله ﷺ بإطالة الصلاة وقصر الخطبة[3].

هذان مذهبان متقابلان ، والواقع أننا نؤيد الثاني لا من جهتهم التي ذكروها ، فقد يتكلم البليغ يوما ثم لا يقول إلا الموجز الفصل لكن من جهة بلاغية فنية ، ذلك أن ما اصطلح عليه البلاغيون من مباحث الإطناب وأقسامه كالاحتراس ، والتتميم ، والتذييل وذكر الخاص بعد العام والإيضاح بعد الإبهام ، والاعتراض ، مما نلمح فيه البسط في الكلام ، والترسل في الحديث ـ أو إيراد الكلام في أسلوبين مقترنين أحدهما مخطوم والآخر مبسوط وجد كثيراً وهذا يؤكد وجود الإطناب في البلاغة النبوية ، ويبقى بعد ذلك أن نقول : إن الإطناب النبوي له سمة خاصة وهو أن فيه شبه من الإيجاز ، وإحكام الألفاظ ، ووفرة المعاني الأمر الذي دفع فريقاً من النقاد إلى الحكم بأن البيان النبوي إيجاز كله ، لكن الأمر على ما قررناه من الاحتكام إلى المصطلحات البلاغية ، ثم وجودها على كثرة في البلاغة النبوية .

---

(١) انظر : المثل السائر ٣/١٠

(٢) انظر : الطراز ٢/٢٥٠

(٣) انظر : إعجاز الرافعي ص ٣٣٥ وما بعدها

ونقدم هنا لمحة سريعة لمباحث الإطناب :

الاحتراس :

عن أبي هريرة ﷺ أنهم قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال : «هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة ؟» قالوا : لا ، قال : «فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة» ، قالوا : لا ، قال : «فو الذي نفسي بيده : لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما»[1].

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ : «إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها ـ غير مفسدة ـ كان لها أجرها بما أنفقت ، ولزوجها أجره بما كسب وللخازن مثل ذلك ، لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئًا»[2].

ونجد كيف تأدى الاحتراس في الحديث الأول : ليست في سحابة ـ ليس في سحابة ليؤكد الظهور الكامل ، والوضوح الشامل للشمس والقمر ، ينفي ما قد يؤثر في ذلك الوضوح حتى يتم التشبيه التقريبي لرؤية الله جل وعلا في الآخرة على سبيل التأكيد واليقين .

وفي الثاني : يحترس بقوله «غير مفسدة» قيداً في إنفاق الزوجة ، وشرطاً في استحقاقها الأجر ، وتوجيهاً إلى الاعتدال في الإنفاق ، وإلا كانت الزوجة وبالاً على المال والزوج معا .

الإيضاح بعد الإبهام :

عن النبي ﷺ : «ألا أخبركم بأهل الجنة : كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر»[3].

---

(١) التاج الجامع : ٣٧١/٥ (٢) المرجع السابق : ٤١/٢

(٣) المرجع السابق ٣١/٥

عن جابر عن النبي ﷺ «ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً ، إن كان ظالماً فلينهه ، فإنه له نصر ، وإن كان مظلوماً فلينصره»[1].

عن أبي سعيد قال النبي ﷺ : «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق»[2].

وفي الأولين: تقديم للمجمل بصورة مثيرة لا تفسر إلا بالاستفهام والعرض: ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ ألا أخبركم بأهل النار؟» أو بذكر مفهوم غريب على العقل «لينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً» مثيراً ذلك غرابة لأن الإسلام يحارب العصبية ، وفيه إيقاظ للفكر والحس ، وجذب للانتباه ، ثم يأتي البيان والإيضاح جليلاً في معناه قويًا ثابتاً ، بما قدم له في النظم والإثارة .

والحديث الأخير «خصلتان . . . .» يشير إلى نوع من الإيضاح بعد الإبهام هو التوشيع : بذكر مثنى مفسر باسمين أحدهما معطوف على الآخر والإبهام في المثنى مع وصفه بوصف يزيد الإبهام والتشويق «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن» ثم يأتي البيان بعد مؤكداً مدلوله ، مشبعاً نهمه النفسي رادًا أشواقها .

الخاص بعد العام :

من حديث مسلم : «اتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

من قول الرسول ﷺ لخالد بن الوليد «إذا أويت إلى فراشك فقل اللهم رب السموات السبع وما أظلت ، ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت كن لي جاراً من شر خلقك كلهم جميعاً ، أن يفرط علي أحد أو يبغي علي»[3].

---

(١) التاج الجامع ٥/٥٣

(٢) المرجع السابق ٥/٤١

(٣) المرجع السابق ٥/١٣٨

فبعد ذكر العام «الدنيا» ، «والأرضين وما أقلت» ذكر الخاص لمزيد خطره وعظيم أثره ، كأنه قسم برأسه ، اهتماماً به ، وتنبيهاً إليه ، وليس كالنساء والشياطين من الخطورة ما يزلزل القلوب والعروش ، وما أحدث الشر على سطح هذا الكوكب .

التذييل :

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب»[1].

عن النبي ﷺ من حديث ابن عباس «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف»[2].

وفي الأول : تذييلان : لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب : يقرر أن الطمع خلق لا ينفك عن ابن آدم حتى الموت ، فالتراب هو الذي يملأ جوفه و«يتوب الله على من تاب» تذييل آخر يقرر أن الطمع في غير مطمع ، والتكالب على الدنيا معصية يجب منه الإنابة والله يقبل التوبة ، والتذييلان يؤكدان مفهوم الحديث الأول ومعناه وغرضه .

والحديث الثاني يؤكد التذييل فيه مضمون ما سبقه : ذلك أن الأمر خيراً أو شراً إذا كان لا يملكه أحد من البشر ولو اجتمع له العاملون فإنه يجري على ما قدر الله سبحانه أزلاً فقد رفعت الأقلام وجفت الصحف إيذاناً بالانتهاء من كتابة المقادير قبل خلق هذا العالم ، ولا يخفي قوة السبك ـ واكتناز الأسلوب ومرونة المعنى ، وصدق الحكم في التذييل النبوي مما جعله مثلاً شروداً خالداً .

---

(١) التاج الجامع ١٦٢/٥ (٢) المرجع السابق ٢١٨/٥

التتميم :

عن كعب بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال : «ماذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال وأشرف لابنه»[1] .

عن أم حبيبة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم اثنتى عشرة ركعة تطوعاً ، من غير الفريضة إلا بنى الله له بيتاً في الجنة»[2].

وفي الأول نجد كلمة «جائعان» تممت المعنى وزادت من حدة الشراسة والافتراس فالذئبان بطبعهما غادران فإن جاعا اشتد الغدر كأن الجوع طبيعة ثانية تصل بهما إلى الجنون والفتك وكذلك «أرسلا في غنم» ليصل الفتك بهذا التتميم إلى النهاية ، والسلب الوحشي إلى الغاية مع إتاحة هذه الفرصة .

وفي الحديث الثانى وقع التتميم ـ كما يقول ابن أبي الإصبع ـ في أربعة مواضع : هي : مسلم ـ لله ـ كل يوم ـ من غير الفريضة[3] .

كل كلمة تضع لبنة أو ركناً يتم به المعنى العام المراد ، ولا يخفى أن ابن أبي الإصبع جعل التذييل والتوشيع والتتميم من الألوان البديعية كما سبق .

الاعتراض :

عن ابن عباس قال : مر النبي ﷺ بقبرين ، فقال : «إنهما ليعذبان ، ـ وما يعذبان في كبير ـ بلى إنه عظيم عند الله . أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»[4] .

وقد اعترض هنا بجملتين بين إثبات العذاب لهما «إنهما ليعذبان» وبين توضيح أسباب العذاب تخويفاً وتعليماً أما أحدهما . . . . .

---

(١) التاج الجامع ٢٦٨/٥
(٢) المرجع السابق ٢٠٨/١
(٣) تحرير التحبير ١٢٨/١
(٤) التاج الجامع ٨٦/١

الأول : «وما يعذبان في كبير» يوضح أنه لا مشقة في فعله ، ولارهق في إتيانه «الثاني» «بلى إنه عظيم عند الله» يكشف عن أثر فعلهما فهو عند الله عظيم لما يترتب عليه من إفساد ذات البين ونشر الشر ، وإبطال الصلوات والبقاء على النجاسة ، فهو ذم لعدم الطهارة الحسية والقلبية . وقد جاء هنا مع الاعتراض نوع آخر من الإطناب هو النفي والإثبات ، فقد نفي أنهما يعذبان في أمر كبير ثم نفى النفي ، أو أثبت أنه عمل عظيم عند الله ، وطريقة النفي والاستثناء تحرك الذهن بسرعة ، وتوقظ الفكر وتقوي المعنى والغرض .

نستطيع مما سبقى أن نقرر :

أن الإطناب بملامحه التقعيدية عند البلاغيين ، قد وجد بوفرة في البيان النبوي وهذا لا يعطينا الحق في نفي الإطناب كلون من التعبير متفق عليه .

ولنا أن نقول إن الإطناب بعد ذلك ـ مثل كل الأساليب النبوية له مرونته وجدته ودقته وصدقه يناسب كل إنسان وزمان ، لأنه قيل لكل إنسان في أي زمان ومكان .

* * *